آليـــات التجريب السردي عند الطاهر وطار
"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" – أنموذجا–

د. جلاب صليحة/ جامعة المدية

يتطلب التجريب في السرد الروائي قارئا متمرسا، مؤولا، محللا، منقبا عن خفايا النص وخباياه، هذه الدراسة المتواضعة تبحث في آليات التجريب عند "الطاهر وطار" من خلال روايته "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي".

المعلوم أن التجريب لا يمس جانب الشكل دون المضمون، إن الشكل عادة ما يخدم المضمون السردي، والعالم الروائي فسيح رحب لا يمكن الإلمام به في ورقات معدودات، لذا رأينا أن نقصر دراستنا على المكونات السردية، مبرزين آليات التجريب من خلالها الشخصية الفاعلة العجائبية، والمكان اللامحدود، والزمن المفتوح السيكولوجي (النفسي).

الكتابة الروائية شأنها شأن العديد من الأجناس الأدبية تطورت عبر الزمن بفعل التطور الحاصل للمبدع "إذ بدأت في إطار فضفاض للتعبير عن المعارف، والأفكار، والآراء، والعواطف بصورة مباشرة "[1]، ومع المستجدات الحاصلة والتطور الحضاري والفكري، لم يعد بوسع المبدع المعاصر أن يبدع عمله الروائي بنفس الآليات الكتابية السابقة.

من هنا بدأت الرواية الجديدة تتمرد على القوالب الروائية التقليدية "وتثور على كل القواعد، وتتنكر لكل الأصول، وترفض كل القيم والجماليات التي كانت سائدة في الرواية التي أصبحت توصف بالتقليدية"[2]، ذلك أن الشكل التقليدي للرواية لم يعد يستوعب مستجدات الواقع الراهن ومضامينه الدينية والفكرية والعقائدية

والاجتماعية، فبات من الضروري التجديد في الكتابة السردية، وتجاوز السائد المألوف.

ظهر مفهوم التجريب في النص السردي، فما هو مفهوم التجريب ؟ وما هي آلياته ؟ بدءا يجب الإشارة إلى أن "التجريب مفهوما وليس مصطلحا، وأنه ليس تقنية بقدر ما هو تعبير عن مواقف أو رؤى فلسفية وجودية، وجمالية وتاريخية تحكم مجمل العملية الإبداعية".[3]

التجريب هو مفهوم، لأنه يختلف من روائي إلى آخر ولا يأخذ شكلا واحدا.

يتفق معظم النقاد على أن التجريب في الرواية هو قرين الإبداع، لأنه يمثل في مجموعة من الثوابت أهمها: [4]

1- ابتكار طرائق وأساليب جديدة في أنماط التعبير الفني المختلفة.
2- تجاوز المألوف والمغامرة في قلب المستحيل.
3- استهداف المجهول دون التحقق من النجاح.

من هنا نستنتج أن التجريب يبدأ من الشكل، بيد أن هذا الشكل يختلف في بنائه من سارد إلى آخر، كل حسب ذوقه، ونظرته للأمور وكيفية معالجتها في عمل سردي.

تبني الكتاب المعاصرين للتجريب لا يعني فقدانا لأصالتهم، وتغييبا لخصوصيتهم، بقدر ما هو ارتباط ملح بظروف الكاتب الاجتماعية، وانعكاسا جليا لمخزونه الثقافي والمعرفي، وبمدى تطور رؤيته وتجربته الأدبية الخاصة.

فالتجريب في الرواية "يتناول أي شيء فيها وكل شيء الموضوع والحبكة والأسلوب، واللغة والتقنية السردية، لكن أهم ما يميزه أنه مغامرة دائمة تبحث فيها

الكتابة وقد تحررت من قواعد الشكل ومن قيود المضمون عن عوالم جديدة وأشكال جديدة"[5].

من هنا نرى أن التجريب يجعل العمل الروائي أكثر مرونة وحيوية، فهو مفهوم نقدي يعني الجرأة في الطرح، والحرية في التعبير دون قيد أو شرط، ما سمح للسارد بابتكار أساليب جديدة في الكتابة بفتح عوالم جديدة، دون الوقوع في العبثية أو الفوضوية.

أصبحت الرواية التجريبية عالما تخييليا دلاليا، لا يخوض في عوالمه إلا القارئ الجيد في تفاعله مع النص، فقد "تميز السرد العربي المعاصر خاصة باستدعاء القارئ للمشاركة الفعلية في بناء النص، وهذه المشاركة كانت أحيانا حاسمة في هذا النمط الإبداعي، لأن الكاتب يخاطب المتلقي مباشرة ويدعوه للإسهام معه في تكوين النص".[6]

فدور القارئ الإيجابي ليس مجرد ترديد واستهلاك، وابتلاع، والاقتناع بالدلالة الظاهرة فحسب، بل إن دوره المنتج لا يتحقق إلا من خلال خوضه في المعاني البعيدة الغائرة المغمورة بين السطور، والرواية التجريبية تتطلب هذا النوع من القراءة، لأنها تجنح في تركيبها وتأثيث أركانها إلى الاختفاء، والإيحائية التي تحتاج قارئ مؤولا لها.

وإذا جئنا إلى الرواية الجزائرية المعاصرة، نجد "الطاهر وطار" من بين رواد التجريب في الكتابة السردية، التجريب السردي الروائي عند "الطاهر وطار" جاء نتيجة تظافر عدة عوامل فنية وإبداعية وسياسية، واجتماعية...، من بين هذه الأعمال الروائية نجد (القصر والحوات، عرس بغل، الشمعة والدهاليز، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء)، وأخيرا روايته الأخيرة "قصيدة في التذلل".

هذه الروايات اتسمت بعناصر المغايرة والخروج عن السائد المألوف، سواء في جانبها الفني أو المضموني.

ومن بين هذه الروايات –السالفة الذكر– اخترنا رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، حتى تكون موضوع دراستنا. ولنلمس من خلالها العناصر التجريبية على المستويين الشكلي والمضموني، إذ من بين آليات التجريب فيها، عجائبية التأثيث السردي، الشخصية العجائبية والأشياء المؤنسة، واللازمن واللامكان.

بيد أن هذا المقام لا يسمح لنا بإدراج جميع ملامح التجريب في الرواية، لذا اقتصرنا دراستنا على الجانب الشكلي (البنية السردية) ودلالتها.

1. الشخصية الرئيسية "الولي الطاهر":

أول ما يصادفنا في المكونات السردية نجد الشخصية الرئيسية "الولي الطاهر"، هذا الاسم الذي حمل بمعان تتكشف مع القارئ بمرور صفحات الرواية وتطور أحداثها، إذ يحمل أبعادا منها:

أ. البعد الصوفي:

لفظة "الولي" لها معنا صوفيا، فقد أورد "الشريف الجرجاني" (ت 816هـ)، "الولي: هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات، المتجنب عن المعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات".[7]

بينما الصفة التي نسبت إلى "الولي" وهي "الطهر" فنجدها من بين "أحب الأشياء عند المتصوفة، النظافة والطهارة، وغسل الثوب، والمداومة على السواك".[8]

نجد الروائي نفسه يورد في مقدمة روايته المعنونة "كلمة لابد منها" قائلا: "ولربما لهذا السبب كانت الشخصية الرئيسية في الرواية، صوفية".[9]

وانتقاء هذا الاسم "الولي الطاهر" للشخصية المحورية يعد آلية من آليات التجريب السردي، "إذ التبئير الحلمي والرؤيوي يكون على الطريقة الصوفية" [10]، فنجد البطل "يعيش حالات تتجسد في حالة واحدة".[11]

ب. البعد الملحمي:

وفي هذا المقام نجد الروائي يصرح: "حاولت تقديم ملحمة وليس فقط قصة"[12]، إذ نجد "الولي الطاهر" له كرامات تشبه معجزات الأنبياء والمرسلين، "وجد الولي الطاهر في نفسه قوة خارقة، فكان وحده يقوم مقام عشرة محاربين أشداء، ما جعله محط أنظار الجميع".[13]

تعدد الأدوار المنسوبة للبطل ينم عن ملمح تجريبي، يحاول السارد من خلاله تجسيد الواقع ومقاربته في العمل الروائي، فـ"المؤكد أن أعمال الطاهر وطار الروائية تستنير قراءات متعددة، قراءات تستنطق المخفي، منطلقة من همها المعيش".[14]

2. الحيز الدلالي:

وثان ملمح من ملامح التجريب نذكره، هو الحيز الدلالي، تبنيا لرأي د/عبد المالك مرتاض "المكان لدينا، هو كل ما عنى حيزا جغرافيا حقيقيا، من حيث نطلق الحيز في حد ذاته على كل فضاء خرافي، أو أسطوري".[15]

اللامكان هو ملمح من ملامح التجريب، وأرضية مواتية للبعد العجائبي الذي شاع في القصة السردية، فهو مكان أقام وأرسى أسسه في مخيلة القارئ، إذ "لا

يكون دائما تابعا أو سلبيا بل إنه أحيانا يمكن للروائي أن يحول عنصر المكان إلى أداة للتعبير عن موقف الأبطال من العالم".[16]

الحيز في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، يشكل ملمحا تجريبيا بارزا، وآلية أساسية، فهو مغزى النص وفحواه، بل إن عنوان الرواية متضمن له، كما أن جميع العناوين الفرعية للرواية تصب في موضوع، "البحث عن المقام"، أي البحث عن الهوية هوية المرء ووجوده.

وهو مكان تدركه الشخصية، وتدرس دعائمه، وتطلي جدرانه، وتختار أثاثه، وتفرش زرابيه، وتدلي ستائره من وحي خيال جامح، فهي تحاول أن تبتعد عن الواقع المعيش لتعود إلى العصر الإسلامي (العصر الذهبي) في الرواية:

- "بحول الله وحمده ها نحن من جديد، نرجع إلى أرضنا".[17]
- "عندما يسقط الولي الطاهر مغميا عليه، في حضرة طيبة، لا حد لا لمكانه ولا لزمانه، ومحاولة معرفة ذلك إفساد للحالة"[18].

فهو في البحث عن مقامه لا يستسلم، "ينبغي أن لا أستسلم لهذه الحال، أكانت امتحانا ربانيا أم خدعة شيطانية لعرقلة العودة إلى المقام الزكي".[19]

3. الزمن الدلالي:

إلى جانب الحيز الدلالي نجد الزمن الدلالي، الذي مسه التجريب، حيث خلخلت عقارب الساعة ولم يعد معمولا بها خدمة لرؤية السارد، وتماشيا مع البعد العجائبي الذي يتطلب زمنا مفتوحا حاملا لمعان عديدة، فـ"لم يعد الخطاب الروائي يحترم التسلسل التاريخي للأحداث بل صار تكسير البناء الخطي سمة من سمات التجديد".[20]

في هذه الرواية نجد مفارقات سردية كثيرة، لأن البطل يريد الخروج من الزمن الحاضر الذي أفاق عليه بالعودة إلى الماضي "مقامه الزكي"، إنه زمن صوفي، لأنه يتم عن طريق الشطحات الصوفية التي يعيشها "الولي الطاهر"، كما أنه زمن ذاتي، زمن الشخصية المحورية، وهذا الأخير بطل صوفي، ملحمي، لا يخضع لا لضوابط مكانية ولا لوقت معلوم يؤثر فيه، فقد أفاق بعد غيبوبته الطويلة ولم يتغير شيء في شكله ما يذكرنا هنا بقصة أهل الكهف.

إنه زمن أهل الكهف، زمن التوقف، وزمن التنقل بين العصور في أريحية تامة، والملاحظ أيضا في الرواية أنه زمن صيفي (القيض).

"فلربما الأمر كله لا يعدو أن يكون اضطرابا في الرؤية تسببت فيه حرارة الشمس الوهاجة".[21]

خاتمة:

التجريب السردي الروائي عند "الطاهر وطار" لم يصل إلى العجائبية المبالغ فيها، بل ظل محافظا على المتن الحكائي، بالرغم من استخدام (السوابق واللواحق). ومن ثم حافظت روايته "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، على نهجها الواقعي، وفكرته الصريحة المعلنة، وهي الدعوة إلى الرجوع إلى "المقام الزكي"، الذي يمثل ماضي الأمة، وهويتها وأصالتها، وتطورها الفكري. في الوقت ذاته انفتحت روايته على آليات التجريب، بصفته عاملا فنيا لابد منه في الكتابة السردية الجديدة، لتطويع الحكي وتجديد السرود.

الهوامش:

1 – ابراهيم السعافين، تحولات السرد : دراسات في الرواية العربية، دار الشروق، عمان، ط1، 1996م، ص: 37.

2 – عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د ط، 1998، ص: 15.

3 – سهام ناصر، مفهوم التجريب في الرواية، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد 36، العدد 5، 2014م، ص: 305.

4 – ينظر: مجموعة من الكتاب، الرواية العربية –ممكنات السرد–، أعمال الندوة الرئيسية لمهرجان القرين الثقافي الحادي عشر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008م، ص: 103.

5 – المصطلح الروائي الفرنسي أميلا زولا، مرجع سابق، ص: 120.

6 – حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدلالة: تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003م، ص: 13.

7 – الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1421هـ–2000م). ص: 249 (باب الواو).

8 – عبد المنعم الحنفي، معجم المصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، ط1، (1400هـ–1980م). ص: 170.

9 – الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، منشورات التبيين، الجاحظية، الجزائر، د ط، 1944م، ص:09.

10 – عرجون الباتول، نحو رواية عجائبية: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، مجلة الثقافة، العدد 21، 2009م،
ص:116.

11 – الولي الطاهر، ص: 09.

12 – المصدر السابق. ص: 10.

13 – المصدر نفسه. ص: 33.

14 – واسيني الأعرج، الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية: الرواية–نموذجا–دراسة نقدية–، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1989م. ص6.

15 – عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي: معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1995م. ص: 245.

16 – حميد لحمداني، بنية النص السردي: من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2000م. ص: 70.

17 – الولي الطاهر. ص: 11.

18 – المصدر نفسه. ص: 14.

19 – المصدر نفسه. ص: 19.

20 – مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر: دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط، 2000م. ص: 95.

21 – الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي. ص: 110.

المصادر والمراجع:

1- ابراهيم السعافين، تحولات السرد: دراسات في الرواية العربية، دار الشروق، عمان، ط1، 1996م.

2- حميد لحميداني، بنية النص السردي: من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2000م.

3- حميد لحميداني، القراءة وتوليد الدلالة: تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003م.

4- الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1421هـ-2000م).

5- الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، منشورات التبيين، الجاحظية، الجزائر، د ط، 1944م.

6- عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي: معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1995م.

7- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د ط، 1998.

8- عبد المنعم الحنفي، معجم المصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، ط1، (1400هـ-1980م).

9- مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر: دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط، 2000م.

10- واسيني الأعرج، الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية: الرواية -نموذجا- دراسة نقدية- ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1989م.

11- سهام ناصر، مفهوم التجريب في الرواية، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد 36، العدد 5، 2014م.

12- عرجون الباتول، نحو رواية عجائبية: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، مجلة الثقافة، العدد 21، 2009م.

13- مجموعة من الكتاب، الرواية العربية -ممكنات السرد-، أعمال الندوة الرئيسية لمهرجان القرين الثقافي الحادي عشر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008م.

14- مجموعة من الكتاب، المصطلح الروائي الفرنسي أميلا زولا، أعمال الندوة الرئيسية لمهرجان القرين الثقافي الحادي عشر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008م.